

# حريق في مكتبة الشيخ عبد الرحمن بن عمر نصيف

وكتبه : خضر بن صالح بن سند.

جدة

١٤٣٠/١/٢٢هـ

خسرت مدينة جدة ( وطلاب المعرفة وعشاق التراث ) هذا الأسبوع أضخم مكتبة أثرية تضم أندر الطباعات من الكتب العربية والدوريات والصحف.

ففي شارع قديم يعود تاريخه لمئات السنين وسهو سوق العلوي ، وأمام مسجد أثري نادر وهو ( مسجد المعمار ) يقع مكتب رجل نادر وفريد ، هو الشيخ عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن حسين نصيف. احترقت المكتبة في الأسبوع الثالث من شهر محرم لعام ١٤٣٠ ، خلفه حزناً و شجىً في نفوس عشاق الكتب ، والباحثين عن النادر الذي لا يقدر على جمعه واقتنائه إلا القليل ، ولا يفتح خزائنه وكنوزه للناس بدون مقابل إلا أندر النادر من الناس.

منظر محزن حقاً وأنت ترى جزءاً من البيت احترق من أسفله لأعلاه ، وترى بقايا أوراق وتجليد الكتب النادرة لم يبق منها إلا أطراف مسودة من أثر النار، احترق نصف المكتبة تقريباً بما في ذلك المكتب الخاص به ،، ذهبت الوثائق والكتب وبقي الرجل صابراً محتسباً كما عرفته ، بقي في ذاكرة المدينة ، وقلوب محبيه ، وبقي كما يقول سيجمع غيرها ويشرع أبوابها للناس وقد قارب السبعين من عمره.

سبب الحريق أن المكتبة في الدور الثاني ، في منزل تاريخي أثري ، وبأسفل البيت تقع دكاكين ، لم يراع أصحابها شروط السلامة ، وشاء الله أن تحرق دكاكين (أبو ريالين - كما عبر أحد الكتاب - ) أندر وأقدم الكتب التي لا تقدر بثمن ، والعجيب تجاهل الصحافة المحلية عن الحريق والمكتبة ، فصحافتنا مشغولة بغير ذلك.



عبد الرحمن نصيف ينتمي لعائلة عريقة في العلم فجده من أشهر علماء البلد وهو محمد نصيف وهو درة الحجاز وسلفيها الأول ، ومفخرة القرن الماضي في جمع الكتب والمخطوطات عاش عبد الرحمن مع جده وتطبع بطباعه وخصائله الرجولية والفريدة ، وهو ينتسب لقبيلة حرب الشهيرة والكبيرة .  
والده من رجالات الحجاز المشهورين ، وشقيقه هو الدكتور عبد الله بن عمر نصيف رئيس رابطة العالم الإسلامي ، ونائب رئيس مجلس الشورى .

وأخته هي الدكتورة الشهيرة فاطمة نصيف المعروفة بكتبها ونشاطها الدعوي .  
وجده لأمه هو عبد الصمد شرف الدين المحقق اللوذعي الذي حقق تحفة الأشراف للمزي .  
وأما جده محمد بن حسين ففريد عصره ومن اطلع على مذكرات وكتب الطنطاوي رحمه الله وقرأ صفات الشيخ محمد يعجب من هذا الرجل الذي كان أمة لوحده ، فمحمد بن حسين نصيف ليس مجرد شخص عادي بل هو الحاكم لجدة ، وقصره الكبير سكن فيه بعض خلفاء الدولة العثمانية ، ونزل فيه حكام الأشراف ، وعقدت فيه اتفاقيات جدة مع الملك عبد العزيز ، ومع ذلك فهناك دور كامل مخصص للكتب والمخطوطات النادرة التي قل أن توجد في العالم ، بين الأرفف توجد الآلاف المؤلفات من الكتب التي أحسن تجليدها وترتيبها ، وفي بيته يلتقي الألباني مع العلمي ويتعرف زهير الشاويش على أعيان الناس .

في هذا المنزل يتعرف العلامة النجدي عبد الرحمن السعدي مع تلميذه الشاب محمد العثيمين على السلفية الحققة في الحجاز ، ويصبح نصيف هو المتبرع والناشر الأول لكتب الشيخ العثيمين ، ويكتب عنه الشيخ ابن عثيمين كتابة بليغة في وصفه وصفة مكتبته وكرمه .

في هذه الدار الكبيرة أيضاً يتعارف رشيد رضا مع علماء الحجاز ، ويصارع أحمد شاعر خصومه وينشر فكرته حول خدمة السنة ويتلقى التبرعات من نصيف وغيره ، وترى محمد حامد الفقي وهو يوزع الكتب ، ويبين فكرة جماعة أنصار السنة ، ويتحدث بلسان الأسد المصور عن حماية التوحيد وخطر البدعة .

ويلتقي الطنطاوي مع شتى الأدباء والشعراء والفقهاء ، يذهل الطنطاوي من المكتبة ويجزم أنه لم ير مثلها في حياته ، يحتار الطنطاوي أ يكتب عن سلفيته أم عن مكتبته أم عن كرمه الخيالي أم عن مساعدته ونجدته للعلماء !! أشياء كثيرة تجمعت فيه رحمه الله .

محمد نصيف يأتية العالم والفقير والغني ، والحكام والوزراء والسفراء وغيرهم يتسامرون على المعرفة ، والكتب والتاريخ ويحضر كثير من هذه الأجواء الحفيد المحب لجدّه وللعلم عبد الرحمن بن عمر ويشاهد الأخلاق وحسن التعامل والتدبير.

فرغ عبد الرحمن نفسه لمجالس جده ، وجعل نفسه الخادم الوفي ، ورأى أنها خير مدرسة ولذلك لم يسافر لجمع الشهادات والمناصب ، وإنما أكتفى بها في الحجاز حيث ملتقى العلماء وموئل الأدباء ، وهكذا تربى في بيت جده العظيم.

وبعد وفاة الشيخ محمد نصيف وذلك سنة (١٣٩١) تحولت مكتبته العامرة للمكتبة العامة بجامعة الملك عبد العزيز وأشرف على تسليمها وتسليم فهارسها عبد الرحمن ، ولضخامتها الهائلة وكثرة مخطوطاتها فقد خصص لها جناح كبير جداً للعناية بها.

بعد وفاة الجد يحاول عبد الرحمن نصيف أن يقتني أثر جده العالم الجليل الشهير ، فقرر أن يبدأ في تكوين مكتبة تكون معلمة ومفخرة للمدينة التي عشقها وأحبته مدينة جدة أبداً بجمع الكتب من أيام حياة جده ، فقد اقتدى بقدوة حسنة ، دفع فيها الغالي والنفيس سافر وأقتنى مكتبات العلماء الذين ماتوا ، وحافظ على تراثهم من الاندثار على أيدي جهلة الأبناء ، جمع أندر الطباعات ، بذل ماله ووقته ، ولكنه كان له نكهة عجيبة!!

مع ثرائه وماله وجاهه أثر أن تبقى المكتبة التي جمعها في منطقة البلد وهي جدة القديمة ، بجوار قصر جده الكبير الذي تحول متحفاً رسمياً وعماماً لزوار جدة (بل أصبح البيت من أهم معالم جدة القديمة) بجوار المسجد أشرف عبد الرحمن مكتبته ، وجعلها مقراً مشاعاً للباحثين والقارئین ، لا أعرف أنه منع أحداً من دخولها ليلاً أو نهاراً ، بإمكانك أن تدخل أيضاً حتى مكتبته الخاص في غيابه ، وقد تسأل ولماذا مكتبته !!، فالجواب لأن الكتب ملئت جميع الحجرات الكبيرة والصغيرة ، وحتى مكاتب الموظفين ترى الأرفف والدواليب المليئة والمزدحمة بالكتب مصطفة فوق رؤوسهم من جميع الجهات ، وأعجب من ذلك الدرج والسلالم فلم يتركها همللاً بل جعل على الحوائط أرففاً تجعلك تقف على كل درجة لتأملها ، في طراز فني جميل وأخاذ ، ولما رأى السقف خلواً أبى تركه هكذا ، فصنع فيه رفوفاً مكونة من رفين متدليين ملئها أيضاً ببعض الكتب والصحف القديمة جداً.

ومدخل المكتبة يوحى إليك أنك في متحف ، فالباب جميل ومزخرف بنحاس منقوش بعناية ، والرحى التي تستخدم في البيوت قديماً بجوارك ، بعض النصب والشواهد على الأرض ، على الجدران في

الأسفل صور من الجرائد القديمة جداً التي تحمل بعض الأخبار الطريفة التي مات أصحابها وأحفادهم وهذه الصحف موجودة ضمن مقتنياته.

بإمكانك أن تشم عبير وعبق الكتب هنا ، وبإمكانك التصوير مجاناً من آلة التصوير وبالعدد الذي تشاء ، في الوقت الذي تريد ، وبإمكانك والبحث والقراءة ، العامل الموجود مكلف بخدمتك وإحضار الشاي الأخضر ، وإهدائك بعض الكتب التي يشتريها نصيف من فترة وأخرى لتوزيعها لوجه الله . لا يعني حضور موظفيه للعمل معه في مهنته المحاماة عدم السماح لك بالدخول أبداً أنت تبحث وتقرأ والموظف يعمل ويكتب ، فأنت في دارة عجيبة ، وإذا لم يناسبك النهار فتعال بعد العصر إلى العشاء بدون أن يشوش فكرك أحد من الموظفين الذين انتهى دوامهم .

بإمكانك مقابلة عبد الرحمن نصيف ، أو الصلاة معه ، وحقاً ستجد متعة في الحديث معه ، فهو سهل وقريب ، وجذاب في استقبال الناس ، بل له طقوس رائعة سأذكرها لك .

يأتي الشيخ عبد الرحمن لمكتبه ومكتبته قبل الفجر بساعة حيث يسكن في شمال جده خلف أسواق المساعدة ، في أرقى أحياء جدة وأغلاها ، ومع ذلك يصّر أن يكون قريباً من الناس البسطاء ، فيدخل مكتبه ويبقى إلى الفجر ، ثم يصلي الفجر في المسجد المجاور لمسجد المعمار ويتلو أذكاره وأوراده ثم يخرج من المسجد وهناك على الطريق يصطف الفقراء من الأفارقة وغيرهم ربما من باب المسجد لباب الدار ليوزع عليه أموال الصدقة وتكون معه جاهزة في حزم مربوطة ، بعدها يدخل المكتبة ليجد عدداً من الضيوف الذين ربما لا يعرف أكثرهم لكنهم يحبونه ويجلونهم ، وربما كان بعضهم من أعيان السوق لكنه جاء حباً في مجالس الخير ، فعادته أن يجعل إفطاراً من الفول الحجازي والتميز الأفغاني ، وغيره مما اعتاد الناس على تناوله صباحاً في جدة ويفرشه على الأرض بتواضع شديد وبجوار الكتب ويجلس بين الناس . يتجاذب مع ضيوفه الذين منهم الغني والفقير وذا الحاجة أحاديثه الماتعة التي تدخل الأنس والسرور ويذكرهم بآداب العرب وأخلاق الماضين ، يضحك ويفتح القلوب ، ولا يستعلي على الناس ، ربما كنت أنا موجوداً فإذا انتهى الناس وقام من الطعام دعاني للجلوس في مكتبه حيث الكتب أيضاً تحيط الجدران الأربعة ، حيث تاريخ جدة وعبقها موزع على الأرفف ، يطل مكتبه على السوق القديم وعلى بوابة جامع المعمار ، يسمع صخب الناس وحركة البيع الشراء ، مكتبه غاية في الأناقة والبعد عن الترف لكنه من الخشب الجميل الذي سبب الكارثة له .

في مكتبه ترى سجادة أنيقة للصلاة وكان العامل يخبرني أنها لصلاة الليل ، ومكاناً مرتفعاً عن الأرض قليلاً فوقه بعض الفرش ينام عليها في الضحى أحياناً ، وربما جلس عليها الضيوف إذا كثروا .  
لطالما دخلت معه في قضايا تاريخية ، وبالذات عن جدة وحضارتها ومساجدها وأعلامها ، وأحيانا أطلب منه الحديث عن بعض من لقيهم أيام جده الشيخ محمد ، ربما سحب منك البساط ويسألك أنت عن مسائل تدل على تواضعه ولطفه ، فهو لم ينصب نفسه مفتياً ، ولا يجيز لنفسه الحديث في كل شيء ولا يستفرد بالكلام بل يسمع حتى تظن أنك أنت صاحب الدار وهو الضيف .

لا تمل من مجالسته وأذكر أنني قد زرته ذات مره صباحاً مع الشيخ عبد الرحمن بن عمر الفقيه المشرف على موقع ملتقى أهل الحديث ، فلما علم أنه غامدي أفاض نصيف في الحديث عن مدينة بلجرشي وزياراته المتكررة للمنطقة الجنوبية ، حتى أذهل الحاضرين الأربعة بحسن معرفته للمواقع والجمال ، وجودة نظره ومعرفته ، فهو يتحدث ويعرف البلد ربما أكثر من بعض أبنائها الذين تركوها أو هجروا الحديث عنها ، يتحدث عن الشرق والغرب من دول العالم ، كعادة الناس يذكر مدنها وأشجارها ، لكنه يذكر مع ذلك حياة القلوب فيذكر الجمعيات الخيرية والعلماء الذين قابلهم فحبه وعشقه نفع الناس .

وربما سمعته يتحدث عن الأعشاب ، والعلاج بالأشياء الطبيعية فيخيل إليك أنه طبيب متخصص ، وترى كتب الأعشاب بين يديه ، فهو شغوف بطبع بعضها وتوزيعها ويناقشك بكل حماس عن فوائدها ، وحجم الضرر الذي أصاب الناس من هذه المركبات الكيميائية ، يتكلم عن العنب وفوائده للجسم ، ويبهرك بتجاربه في ذلك ، ويهديك كتباً طبعها على نفقته ، وربما رأيت بعض الحاضرين ممن استفاد من تجاربه فتغيرت حياته الصحية .

تفاجأ أنه بعد ذلك أنه يجيد أكثر من لغة ، ولسانه طلق بها ، وبيتسم دائماً إذا شعر أنك لا تعرف ما يقول ، فيخفف عنك ويقص عليك أسباب إتقانه لهذه اللغات .

له عناية بعلماء العقيدة السلفية ، تراه في المجلس ينتقد التصوف في الحجاز ، يعرفك بأخبار أهل السنة الذين أدركهم أيام جده وبعده ، وحق له ذلك فجده هو أشهر رجل سلفي في عصره ، لكنه لا يجرح أحداً ولا يبالغ في الذم إلا إذا كان له مستند وبرهان بأدب جم وتواضع جميل ، يعرف كيف ينزل الناس منازلهم ، بدون أن يسمح لأحد أن يفسد عقيدة الجالسين أو ينطق بهرطقات المهووسين من المتصوفة وغيرهم .

كتبي ولكنه سلفي أيضاً حتى النخاع ولعل هذا هو السبب والله أعلم في عزوف الصحافة المحلية الحجازية في الكتابة عنه ، فليس صاحب مجالس سمر وعبث ، و ليس يحضر مجلسه أرباب الحداثة والعلمنة ، وليس من أرباب الطرق الذين تسعى الصحافة لتلميعهم ، ولقد احترقت مكتبة أحد المتصوفة قبل بضعة أعوام في مكة فأقامت الصحافة البكاء والعيول عليها ، واتهم هو أطرافاً خارجية بحرقها ، ثم ظهرت حقيقة الرجل وكذبه الدفاع المدني في دعواه ولم يبق له إلا الخسارة.

أسأل الله أن يعوض الشيخ عبد الرحمن خيراً ، أن يخلفه خيراً مما ذهب وأن يجزيه على ما قدم للعلم وأهله ، وسيبقى بحق ذكرى لن تزول لطلبة العلم الذين مكنهم من مكتبته ووقته بدون أن يجد غضاضة ، أو اشمئزاً من بعضهم ، أو يجعلهم يحسون بالذل أمام أبواب المكتبات الخاصة.

سيبقى هو ومسجد المعمار وسوق العلوي تذكراً للمتواضعين أصحاب الخلق الرفيع ، وسيبقى جدة منارة لكل طالب علم بإذن الله.